(دلالة المقتبسات القرآنية في السياق الشعري ،عرض ودراسة)

توطئة: التعريف بالمقتبسات القرآنية في الشعر:

أولاً : تعريف الاقتباس لغة :

أخذت من الجذر (قبس) والقَبَسُ في المعاجم تعني : شعلةٌ من نار ؛ وكذلك المِقْباسُ يقال: قَبَسْتُ منه ناراً أَقْبِسُ قَبْساً فأَقْبَسَني أي أعطاني منه قَبَساً. وكذلك اقْتَبَسْتُ منه ناراً، واقْتَبَسْتُ منه عِلماً أيضاً، أي : استفدته ، قال اليزيديّ: أَقْبَسْتُ الرجل عِلماً وقَبَسْتُهُ ناراً، فإن كنت طلبتها له قلت: أَقْبَسْتُهُ. وقال الكسائي: أَقْبَسْتُهُ عِلماً وناراً سواءٌ.

ثانياً :الاقتباس اصطلاحا:

الِاقْتِبَاسُ تَضْمِينُ الشِّعْرِ أَوِ النَّثْرِ بَعْضَ الْقُرْآنِ ، بِمَعْنَى تَضْمِينِ الْمُتَكَلِّمِ كَلَامَهُ - شِعْرًا كَانَ أَوْ نَثْرًا - شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، أَوِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، عَلَى وَجْهٍ لَا يَكُونُ فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوِ الْحَدِيثِ.

و يعد علم الاقتباس من بدائع علوم القرآن الكريم ، فقد استعمله الرسول (صلى الله عليه وسلم)في رسائله إلى الملوك لدعوتهم إلى الإسلام وفي دعائه ، واستعمله أئمة الفصاحة في خطبهم وأشعارهم واستعمله الفقهاء وشراح الحديث وأئمة التفسير في مقدمات كتبهم.

ونسب السيوطي (ت: ٩١١هـ) إلى الصوفية أكثر الاقتباسات القرآنية فقال: ((وَمِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ اسْتِعْمَالًا لِذَلِكَ الصُّوفِيَّةُ، وَقَدْ يُسَمَّى ضَرْبَ مَثَلٍ، وَقَدْ يُسَمَّى إِشَارَةً، بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْمَوْرِدِ، وَكُتُبُهُمْ مَشْحُونَةٌ بِذَلِكَ وَمُحَاوَرَاتُهُمْ وَمُخَاطَبَاتُهُمْ حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَقَامَ بُرْهَةً لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يُخَاطِبُ أَحَدًا إِلَّا مِنَ الْقُرْآنِ)).

خلاف العلماء حول (قبول الاقتباس القرآني أو رفضه):

اشْتُهِرَ عَن بعض العلماء تَحْرِيمه للاقتباس وَتَشْدِيدُ النَّكِيرِ عَلَى فَاعِلِه ، وجوزه آخرون فَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ الْمُتَقَدِّمُونَ وَلَا أَكْثَر الْمُتَأَخِّرِينَ مَعَ شُيُوعِ الِاقْتِبَاسِ فِي أَعصارهم وَاسْتِعْمَال الشُّعَرَاءِ لَهُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

وَقَدْ تَعَرَّضَ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فَسُئِل عَنْه الشَّيْخ عِزُّ الدِّينِ بن عَبْدِ السَّلَامِ فَأَجَازَهُ وَاسْتَدَلَّ لَهُ بِمَا وَرَدَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا وَقَوْلِهِ: "اللَّهُمَّ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ ".

اختلف العلماء في قبول الاقتباس القرآني من عدمه في الشعر ، فذهب المجيزون يتأولون سبب قبولهم لما يحمله القران من منطق منفرد وسحر بيان وجلال إعجاز يضاف إلى ذلك أسلوبه الفذ السهل الفريد في التصوير والتعبير وما قدمه من معان فريدة لم يتعرفها إلا منه لم يألفوها إلا بعد نزوله فكان للقرآن الفضل في إقامة عمود الأدب العربي ، فبدأ الشعراء يصيغون وينهلون من آياته في أشعارهم ستمدون من نوره ما يقوِّم ألسنتهم ، قال السيوطي:

قلـــــــــت وأما حكمه في الشرع ... فمـــــالك مشـــــدد في المنـع

وليس فيه عندنا صراحه ... لكن يحيى النـــــــــــــــووي أبـــاحه

في الوعظ نثرا دون نظم مطلقا ... والشرف المقري فيه حقـــــــــــقا

جوازه في الزهد والوعظ وفي ... مـــــــدح النبي ولو بمدح ما اقتفـى

وقد جوزه جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ فِي الْجُمْلَةِ إِذَا كَانَ لِمَقَاصِدَ لَا تَخْرُجُ عَنِ الْقواعد الشَّرْعِيَّةِ تَحْسِينًا لِلْكَلَامِ، أَمَّا إِنْ كَانَ كَلَامًا فَاسِدًا فَلَا يَجُوزُ الاِقْتِبَاسُ فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ كَكَلَامِ الْمُبْتَدِعَةِ وَأَهْل الْمُجُونِ وَالْفُحْشِ.

وَقَدِ اشْتُهِر عِنْد الْمَالِكِيَّة تَحْرِيمُه وَتَشْدِيد النَّكِير عَلَى فَاعِلِه ، لَكِنَّ مِنْهُ مَن فَرَّق بَيْن الشِّعِر فَكَرِه الاِقْتِبَاس فِيهِ، وَبَيْنَ النَّثْرِ فَأَجَازه، وَمِمَّنِ اسْتَعْمَلَه فِي النَّثِر مِنَ الْمَالِكِيَّة الْقَاضِي عِيَاض وَابْن دَقِيق الْعِيد وَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ فُقَهَاءُ الْحَنَفِيَّةِ فِي كُتُبِهِمُ الْفِقْهِيَّةِ ، كان أحد الدعاة المهتمين باللغة العربية والدراسات القرآنية يدعو إلى نشر المفردات والمصطلحات القرآنية في خطابنا اليومي، وقد كلمني كثيرًا في هذا؛ لأنه يرى أن لغة الناس اليوم صارت بعيدة عن لغة القرآن.

ومن ثم صارت مفردات القرآن غريبة على السمع، وهذا أثر تأثيرًا سلبيًا على فهم القرآن وتدبره، بخلاف ما كان عليه الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانت لغتهم اليومية أقرب إلى لغة القرآن، بل لقد أثّر القرآن في لغتهم تأثيرًا

واضحًا في المفردات والأساليب، حتى طغت العامية في الخطب و تتسللت إلى خطاباتنا المفردات والعبارات الأجنبية، وهذا يعني أنه بمرور الزمن تتكون عندنا لغة بعيدة كل البعد عن لغة القرآن."فالاقتباس على هذا يقسم بحسب الحكم إلى:

١- مَقْبُولٌ : مَا كَانَ فِي الْخُطَبِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْعُهُودِ، وهذا وجدناه في خطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في قولها : (وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبيّة ، فاتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون(102 ال عمران)).

فالمخاطب والمتلقي هنا متغير ففي الآية الله سبحانه وتعالى والمتلقي عامة الناس ، وفي الخطبة المتضمنة اقتباس السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها المتكلم هي من البشر والمتلقي مجموعة أشركت بالله ، وإن فعل الأمر في الآية متحقق لامحال ؛ لأنه صادر من الله ، أمّا في القول المقتبس عند سيدتنا الزهراء فتحقق هذا الأمر يكون بوساطة فتكون كالوسط الناقل لما سيحصل فالكلام من خلالها والوعيد لم يكن مباشراً من الله و، إنّما تم بوساطة

٢- وَمُبَاحٌ : مَا كَانَ فِي الدعاء وَالرَّسَائِلِ وَالْقِصَصِ ، ومثل ما ورد عن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بِمَا وَرَدَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا وَقَوْلِهِ: "اللَّهُمَّ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا (الأنعام: ٩٦)، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ).

فالخطاب في الآية موجها من الله صاحب القول إلى عامة البشر ،وفي هذا إِشَارَةٌ إِلَى فِعْلِ اللَّهِ فِي أَنْ يَشُقَّ جَمِيعَ الْحَبِّ عَنْ جَمِيعِ النَّبَاتِ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ وَيَشُقَّ النَّوَى عَنْ جَمِيعِ الْأَشْجَارِ الْكَائِنَةِ عَنْهُ فنَبَّهَ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْبَاهِرَةِ فِي شِقِّ النَّوَاةِ مَعَ صَلَابَتِهَا وَإِخْرَاجِهِ مِنْهَا نَبْتًا أَخْضَرَ لَيِّنًا إِلَى مَا بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ وَالْبَعْثِ وَالنَّشْرِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

أمّا في الكلام المقتبس فالكلام فيه قد نقل من وإلى وتضمنت طلباً وحاجة و دعاءًا ، وإنّ الفاعل في الآية لم يذكر وذكرّ في النص المقتبس لأن الفاعل معروف فهو المتكلم ، وفي النص المقتبس ظهر الفاعل لأن النص نقل عن الله .

٣- وَمَرْدُودٌ:

يقول الدكتور عبد المحسن العسكر في بيانه لبعض الوجوه التي لا يجوز الاقتباس من القرآن فيها ، ومنها:

١- . ما أضافه الله إلى نفسه مما تكلم به سبحانه وتعالى مثل: {إني أنا ربك فاخلع نعليك}.

٢- ما أقسم الله به من مخلوقاته، كما في قول بعضهم: "والتين والزيتون ... وطور سينين ... وهذا البلد المخزون".

٣- ما خوطب به الرب -جل وعلا- كما وقع في كتابٍ لعبد الرحمن المرشدي إلى القضاة، جاء فيه: "يا أعدل قاضٍ به عماد الدين، آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين".

٤- ما يتبادر إلى السامع أنه من القرآن، مع تغيير بعض الكلمات، كقول أحدهم: "والنجم إذا هوى... ما ضل يراعك وما غوى... علَّمه شديد القوى... ذو مرة فاستوى".

٥- ومنه ما يعد محاكاة للقرآن واستعمالًا له في غير معناه، كقول النبيه يمدح القاضي الفاضل: "لا تسمِّه وعدًا بغير نوال... إنه كان وعده مفعولا"..

٦- تَضْمِينُ آيَةٍ فِي مَعْنَى هَزْلٍ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، كقوله:

أوحى إِلَى عُشَّاقِهِ طَرْفَهُ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ

وَرِدْفُهُ يَنْطِقُ مِنْ خَلْفِهِ لِمِثْلِ ذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ

الأهـــــــــــــــــداف :

١- تثقيف الناس بالنصوص القرآنية و ما تحمله من معان

٢- تنبيه الناس على بلاغة القرآن التي لا تنطق عن الهوى فهو يحمل دلالة لا تتكرر وإن اقتبسها البشر .

٣- التعرف على الممنوع والمباح من الأحكام الخاصة بالاقتباس القرآني .

التوصـــــــــــــــيات :

١- يعد القرآن الكريم معجزة ربانية لا يمكن استعمالها لأغراض تخالف الشريعة الدينية .

٢- تعويد اللسان على الألفاظ التي وردت بالقرآن والإكثار من جمله في الأدعية .

٣- الابتعاد عن الاقتباس المردود لمخالفته للشرع والدين .